عوائق الممارسة التربوية في المؤسسات الاجتماعية وعلاقاتها بانحراف الشباب

أ. سامية مامنية

جامعة سكيكدة

الملخص:

تعد ظاهرة انحراف الشباب من الظواهر السلبية الخطيرة التي لازمت وجود البشر ، وهي تمثل تهديدا متناميا لأمن المجتمع، واستقراره وخُططه التنموية وبنائه الاجتماعي ، فانحراف الشباب ظاهرة اجتماعية عاشت في كل مجتمع واختلفت نظرة التّاريخ الاجتماعي إلى هذه المشكلة، فقديما اعتبر الشاب المنحرف مجرما وأنه يستحق العقاب و لا سبيل إلى إصلاحه إلا بالبتر حتى لا يصاب المجتمع باختلال توازنه. أما المجتمعات الحديثة فقد أدركت بما لا يدعو للشّكّ بأنّ الشباب غالبا هم ضحيّة ظروف اجتماعيّة أدّت بهم إلى الانحراف وسوء التكيّف كقصور الدور الوظيفي للمؤسسات الاجتماعية المسئولة عن ذلك على غرار الأسرة والمدرسة ، وعليه سنتناول في هذا المقال جدلية العلاقة بين الممارسات التربوية داخل مؤسستي الأسرة والمدرسة و انحراف الشباب.

الكلمات المفتاحية: العوائق– الممارسة التربوية– المؤسسات الاجتماعية– الأسرة – المدرسة – الانحراف – الشباب.

مقدمة :

تعتبر التربية بصفة عامة ، والممارسة التربوية بصفة خاصة من الموضوعات الهامة التي تشكل محور اهتمام علماء التربية، وميادين التربية ووسائل الإعلام والاتصال، وذلك لما للموضوع من أهمية بالغة في حياة الفرد، غير أن ما نلاحظه عقب القرن العشرين من تزايد وتيرة حركة التغير وما أصاب المجتمع من تخلخل في بنائه العام قد نتج عنه بروز عدة اختلالات ففي مؤسسات مختلفة ولاسيما المؤسسات السوسيو تربوية ، والتي أصبحت في السنوات الأخيرة عاجزة عن أداء أدوارها ، كما دلت عليه الكثير من الدراسات الحديثة .

وفي خضم هذا الواقع و التغير الاجتماعي الشامل ظهرت مشكلة انحراف الشباب و التي أصبحت مستعصية الحل ،وخاصة في المدن الكبرى بعدما همشها النسق العام المتمثل في المؤسسات التربوية و الاجتماعية بمختلف أنواعها(الأسرة ، المدرسة...) ومن هنا ظهرت الفجوة بين انحراف الشباب من جهة ، وهذه المؤسسات ودورها التربوي من جهة أخرى.

ولقد تطورت الدراسات الاجتماعية المهتمة بالمسائل الشبانية في الجامعات البريطانية و الأمريكية منذ سنة 1970 تحت اسم الدراسات الشبانيةyouth studies ، حيث اهتمت البحوث في هذا المجال بكل الموضوعات التي تخص الشباب بدءا من المدرسة و التكوين مرورا بالانحراف، ولكن الزوايا التي عولجت بها هذه الموضوعات كانت مختلفة ، حيث هيمنت رؤى متشائمة في تناول المسائل الشبانية لدى الباحثين في الفترة الممتدة مابين 1970 -1980 ، بينما شهدت السنوات الأخيرة بدءا من 1990 بروز رؤى أكثر تفاؤلا.

أما في المرحلة الراهنة فإن الدراسات المهتمة بالشباب أصبحت توجه اهتمامها نحو الانحراف و العنف الحضري نظرا لتفاقم هذه الظاهرة و انتشارها بشكل ملحوظ ولاسيما في العشرية الأخيرة.

إن رصد أهم الملامح الاجتماعية و الاقتصادية وحتى التربوية التي أفرزتها عملية التنمية الشاملة ، واستنادا إلى الواقع ، وما أوضحته الدراسات المركزة حول الشباب ، يسمح لنا بطرح التساؤل التالي و الذي يعتبر محور هذا المقال وهو: ماهي عوائق الممارسة التربوية في المؤسسات الاجتماعية ؟ وما علاقتها بانحراف الشباب؟ .

* نشأة نظام المؤسسات الاجتماعية و رعاية الأحداث:

لقد عرف نظام المؤسسات الاجتماعية لرعاية الصغار منذ منتصف القرن 18 م عندما أنشأ بستالوزي jean henri pestalozzi [*] (1746-1827) أول مدرسة للأيتام في سويسرا وظهرت أفكاره في انتقاد التربية القديمة على اعتبارها تربية لفظية قوامها تعليم اللغات وحفظ المعلومات ،" ولقد أثر بستالوزي على معاصريه مباشرة و بالواسطة : بكتاباته و بالأمثلة الملموسة التي أوجدها بمؤسساته، من جهة ، وبواسطة تلاميذه ومريديه من جهة أخرى "[1].

وظهرت بعد ذلك أسماء لامعة في تاريخ الرعاية المؤسسية مثل: أوبر لين jean fridric Oberlin (1740-1828)و فيليب إيمانويل Philipe Emmanuel في ذات العصر ، ونيكولا تولستوي [(*)] N.tolstoy (1828- 1910) الذي استمد آراءه الأصلية في التربية من جون جاك روسو ، ولقد زار الكثير من المدارس الأوروبية خلال رحالاته ، ووجدها سخيفة في أساساتها وغاياتها و أساليبها ، فالمدارس في نظره " يجب أن تكون بمثابة مختبرات تربوية ، يدرس فيها المربون نفسيات الأطفال و يكتشفون احتياجاتهم ، ويوجدون الطرق الموافقة لهذه النفسيات و الملائمة لتلك الاحتياجات ، بالتجربة و الاختيار "[2] .

غير أن هؤلاء الرواد الاجتماعيين لم يكن نشاطهم منصرفا أصلا إلى مجال رعاية الأحداث المنحرفين ، ولكنهم كرسوا جهودهم لإنشاء المؤسسات التعليمية المتخصصة في تعليم طوائف معينة من الأطفال اليتامى أو الذين هجرهم أبائهم أو المحرومين من الرعاية بوجه عام.

أما مؤسسات رعاية الأحداث المنحرفين وعلاجهم فقد بدأ الاتجاه إلى إنشائها في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن 19، حين دعا الباحث جريسكوم Grescom بعد جولة قام بها في أوربا – إلى ضرورة القيام بعمل من أجل أبناء الطبقات الفقيرة التي يتفشى فيها الإجرام في مدينة نيويورك ، واستجاب له زملائه المشتغلين بميدان العمل الاجتماعي ، وأسفرت جهودهم عن إنشاء أول مؤسسة إصلاحية لعلاج الانحراف بين الأحداث في المدينة 1821 ،و تقرر أن يرسل إلى هذه المؤسسة صغار المذنبين الذين يمثلون أمام السلطات بدلا من إيداعهم في السجون العامة ، وكان هذا العمل أول خطوة لإنشاء المؤسسات الاجتماعية المخصصة لرعاية المنحرفين ، بعدما كانت في شكل ملاجئ أو منازل إيواء،يودع فيها الأطفال الذين فقدوا المأوى ، و الذين هم بحاجة حقيقية إلى الرعاية و الحماية ،و اتخذت بعضها صور الإصلاحيات التي يودع فيها المتمردون و العصاة من الأحداث ، ثم أطلق على هذه المؤسسات عبارة «مدارس الدولة» في الولايات المتحدة ،كما عرفت في بريطانيا باسم «مدارس التدريب» ولم تكن أكثر هذه المراكز الاجتماعية تقدم لنزلائها غير الطعام و المأوى ، ثم لحقتها بعض مظاهر التطور، و التي تمثلت في الاهتمام بالمنحرف و احتياجاته الطبيعية وتوجيهه للسلوك القويم.

*عوائق الممارسة التربوية في المؤسسات الاجتماعية و انحراف الشباب :

تعتبر ظاهرة انحراف الشباب من الظواهر الاجتماعية التي لا مفر منها في كل المجتمعات مهما كانت درجة تطورها، " فوجود 34 مركز لإعادة تربية الأحداث المنحرفين في الجزائر"[1] دليل واضح على تفاقم هذه الظاهرة ، بالإضافة إلى العديد من مراكز إعادة التربية الخاصة بالمنحرفين الكبار (السجون).

"إن أساس الانحراف هو مجموعة عمليات proccussus ،كما أن طرائق العلاج من الانحراف ، هي أيضا مجموعة عمليات أخرى ، بمعنى آخر أن أية مجموعة من العمليات تنتج عنها عمليات أخرى"[2].

ومن المعلوم أن الانحراف هو سلوك غير مرغوب فيه له عدة أسباب وعوامل اجتماعية واقتصادية وثقافية ...إلخ ، ففي الجزائر مثلا تتجسد أسباب الانحراف بصفة عامة في " فشل المؤسسات الاجتماعية وعجزها عن أداء أدوارها ووظائفها بفعالية ، بما في ذلك الأسرة و المدرسة ومنظومة التكوين و التعليم عموما..."[3]

بالإضافة إلى مشكل البطالة " التي تشكل مصدر مخاطر أكيدة بالنسبة للشباب ، فبقاء الشاب بدون موارد ورعاية عائلية يجعل منه فردا يعيش على هامش المجتمع، وبالتالي تكون أمامه فرصة كبيرة للوقوع في الانحراف [4]

وفي هذا السياق سوف نتعرض إلى بعض عوائق الممارسة التربوية في المؤسسات الاجتماعية (الأسرة، المدرسة) وعلاقاتها بانحراف الشباب.

1- عوائق الممارسة التربوية داخل الأسرة و انحراف الشباب:

تسلم كافة الأبحاث و الدراسات المتطورة بالدور الذي تقوم به الأسرة كمؤسسة اجتماعية في تكوين شخصية الفرد ، وما تقوم به من خدمات في مجال الرعاية الاجتماعية و النفسية و الصحية ..الخ ، ورغم أن المؤسسات الاجتماعية الأخرى يمكنها أن تلعب دورا في سبيل الحد من تيار الانحراف و السلوك الاجتماعي غير المتوافق لدى الفرد، فإنها لاتصل إلى هذا الهدف إلا إذا بذلت جهودا إيجابية حيال «الأسرة» بصفة رئيسية.

ومن المشاهد بصف عامة أن الأطفال الأسوياء لا يأتون في العادة إلا من آباء أسوياء ، كما أن الأب المنحرف و الأم المنحرفة يلعبان الدور الرئيسي في انحراف أبنائهما ، ومن هنا تظهر الأهمية الكبيرة للعلاقات العائلية داخل نطاق الأسرة، والسلوك التربوي الممارس على الأبناء ، ومن بين العقبات التي تقف أمام الأداء التربوي السليم للأسرة ،وما ينتج عنها من انحراف نجد:

أ- العلاقات العائلية السيئة:

لا يمكننا أن نفرض رقابة تامة و صارمة على العلاقات الموجودة بين الآباء و الأبناء أو بين الوالدين فيما بينهما ، وكلما كانت العلاقات العائلية داخل الأسرة سيئة ، كلما اتجه مؤشر سلوك الأبناء نحو الانحراف ، فالعلاقات الطاغية أو الأنانية و المستهترة و العصبية بين الزوجين تؤثر بشكل واضح على تربية الأبناء ، وهذا ما كشفت عنه العديد من الدراسات في مجال الأسرة ، و الأبوة الناجحة قد تبدأ قبل أن يوجد الطفل ،أو قبل الزواج نفسه،"فالأبوة و الأمومة الصالحتان تقومان على عنصرين هما:

أولهما: التوافق و الانسجام في الزواج سواء من ناحية حسن الاختيار أو من ناحية التكافؤ أو توافق الطباع و المشاركة الوجدانية بين الزوجين .

ثانيهما:وهو الأهم :-أن يكون كلا الزوجين معدا للحياة الزوجية إعداد صالحا... كما أن العقد و الصراعات و المشاكل المعيشية التي تسود المجتمع المنحرف تلعب دورا كبيرا في تدرج المنازعات العائلية نحو التعقيد الشديد مما ينعكس صداه على الأطفال بدرجة واضحة..."[1]

ب- أثر الشقاق العائلي على الأبناء:

إن الشاب الذي ينحدر من عائلة يسودها التنازع بين الوالدين يشب في جو من الشقاق و العصبية ، وفي بيئة يعوزها الأمن و الإشباع العاطفي ، وإذا كان عاجز عن ضبط نفسه فإنه يمكن أن يتعرض للإصابات الانحرافة ، ويجب أن ندرك أن تحسن سلوك الوالدين يؤدي إلى تحسن في سلوك الأبناء كنتيجة حتمية لازمة ففي دراسة " لبريتر و روتالدج prinz ronaldj تضمنت 46 طفلا من الذكور و الإناث في المرحلة الابتدائية بينت أن الأطفال الذين شهدوا عداءا صريحا بين الوالدين تم تقييمهم من قبل معلميهم على أنهم اقل تكيفا في المدرسة ، وأكثر خوفامن تخلي والديهم عنهم ، وأكثر شعورا بالذنب ، مقارنة بمجموعة الأطفال الذين لم يشهدوا عداء صريحا بين الوالدين"[2] ، فالأسرة التي يسودها الشقاق العائلي و السلوك الغير سوي يؤثر حتما على الأبناء فيما بعد ويسلكون طريق الانحراف ،، لان " أنماط السلوك تنتقل من الإباء للأطفال ، ومن ثم من الأطفال إلى أبنائهم عندما يصبحون أباء ، أي أن نماذج التفاعل تنتقل من جيل لأخر خلال الوسط الثقافي للأسرة "[3].

ت- غياب العاطفة و الرعاية الأسرية:

إن التصدع العائلي في ذاته ليس هو السبب الدافع لانحراف الشباب الذين ينحدرون من الأسرة المتصدعة ، ولكن هناك عوامل أخرى ظاهرية أو كامنة تحيط بالأسرة المنهارة ، ولاسيما التي تفتقر إلى عاطفة الأمومة ، فلقد " وجد أن الأطفال الذين تربوا في مؤسسات الإيداع بعيدا عن الأم ورعايتها لم يتمكنوا من تكوين علاقات عاطفية مع الآخرين"[1]أي ميالين إلى النزعة العدوانية وكره الآخرين مما يؤدي إلى الانحراف ، ويرى برناردبول B.paul أن "الأم هي أول موضوع يميزه الطفل عن ذاته، ولذا تكون

أول علاقة للطفل مع الآخرين هي علاقته بأمه ،ويمكن لهذه العلاقة أن تحدد موقفا أساسيا يتحكم في كل العلاقات المستقبلية "[2]، ولهذا فإن الشاب الذي تكون علاقته بأمه سيئة ،فإنه يسلك طريق الانحراف لامحال ، وتكون الأسرة في هذه الحالة منهارة من الناحية العاطفية ،ولقد أوضحت دراسة موسن :Mussen.p أثر المناخ الأسري المتمثل في طابع علاقة الوالدين بالأبناء ، في أن الأبناء الذين لم يحصلوا على عطف أبوي بدرجة كافية، كانوا أقل أمنا، وأقل ثقة بالنفس ، وأقل توافقا في علاقتهم الاجتماعية مع الآخرين"[3]ومن هنا فإن المحاولات المقصودة لتربية الأبناء تحكمها الصور التي يرسمها الآباء لما يرغبون أن يكون عليه الابن ، وهذه الصور تتأثر بدورها غالبا بالمواقف الاجتماعية التي يعيش فيها الآباء ، أضف إلى ذلك تلك المؤثرات التي تنشأ عن نمط العلاقات المتبادلة بين أعضاء الأسرة وعن نوع العواطف وشدتها التي تعبر عنها أثناء التفاعل الاجتماعي في الأسرة.

ومن أجل ضمان سير عملية تربية الآباء لأبنائهم ، وبالتالي تجنب الوقوع في الانحراف لدى الشباب ، اقترح المربون وعلماء اجتماع التربية اتجاهين لرعاية الأسرة بصفة عامة هما:

*الاتجاه إلى عقاب الوالدين:

من المعروف أن العلاقات العائلية يحكمها طرفان بارزان هما : الوالدين، ومن ثم فإن اللوم يقع دائما عليهما ، باعتبار أن أي إخلال بسلامة العلاقة العائلية ينعكس صداه على الأفعال و المظاهر السلوكية التي تصدر عن أطفالهما ،ولعل ذلك هو التفسير الواضح لكثير من القواعد التشريحية في شؤون الأحداث التي تقرر مسؤولية الوالدين عن بعض المظاهر الانحرافية التي تبدو من أبنائهما رغم مافي ذلك من إخلال بمبدأ «شخصية العقوبة»ولكن هذا المبدأ لايجال لأعماله في نطاق الأصول الصحيحة في تقويم الأحداث، ولذلك فإن القواعد التشريعية التي تدين الوالدين ، أو أحدهما ،أولى الأمر في حالة ارتكاب الابن لعمل انحرافي ليس فيها أي إخلال بالعدالة أو المبادئ ، لان الوالدين في مثل هذه الحالات يكونا –على الأقل – مرتكبا لجريمة من جرائم الخطأ وهي إهمالهما لرعاية الابن أوالحدث.

ففي بعض الولايات الأمريكية ظهر اتجاها جديدا نحو إنشاء المعاهد المتخصصة في تدريس أصول التربية للوالدين ، وقد يجد قاضي الأحداث عند بحث الظروف التي أدت إلى مثول الحدث أمامه ضرورة الحكم بإلزام احد الوالدين أو كلاهما بالالتحاق ببعض المعاهد لفترة معينة ونجد مثلا مدارس الآباء و الأمهات parental schools في سان فرانسسكو"[1]،ولكن أدرك بعض الباحثين في دراسات دقيقة لبرامج هذه المدارس مدى خطورتها ولاسيما على الجانب النفسي كالشعور بالضيق و الإحباط و الحقد أحيانا الذي ينتاب الوالدين جراء إجبارهما على الالتحاق بهذه المعاهد في فترة من العمر قد تكون متقدمة ولهذا فإن هذه العقوبة مهما كان أثرها في زجر الوالدين فإنه ينقصها عنصر التوجيه و الإرشاد

* الاتجاه إلى التوجيه و الإرشاد الأسري:

يقابل هذا الاتجاه الهادف ، الاتجاه العقابي ، ويمتاز بأنه اتجاه بناء يهدف إلى علاج المشكلة علاجا إيجابيا ، وذلك برعاية الأسرة رعاية اجتماعية توجيهية يكون هدفها تقوية الصلات العائلية من خلال مساعدة أفراد الأسرة على فهم مشاكل الأبناء ، سواء كانوا منحرفين أو بدت عليهم أعراض الانحراف.

" ويلقى الإرشاد الأسري اهتماما بالغا منظما في كثير من بلدان العالم ، فمثلا أنشأ في الولايات المتحدة الأمريكية أول عيادة للإرشاد الأسري أطلق عليها«معهد العلاقات الأسرية » في سنة 1930 في مدينة لوس أنجلوس على يد بوبينو ،وافردت للإرشاد الأسري مجلات علمية دورية متخصصة مثل:International journal of family counseling "[2] .

والإرشاد الأسري يعني إرشاد الشباب youth counseling أيضا،و العمل على رعايته وتوجيهه نفسيا و اجتماعيا وتربويا ومهنيا ، لان هذه المرحلة تعتبر مرحلة توتر وشدة في حياة الفرد، وتكتنفها الأزمات النفسية وتسودها المعاناة و الصراع و الضغوطات الاجتماعية والتي من شأنها أن تؤدي إلى الانحراف.

فإذا كان التوجيه الأسري يسير بشكل جيد ، وكانت الأسرة متماسكة واتفقت على أسلوب تنشئة الطفل ، فإنه ينشأ بعيدا عن التوتر و الإحباط ، أما إذا كانت الأسرة يسودها الخلاف و التشاحن ، فإنه من الصعب جدا ضبط شخصية الأبناء و ممارسة الفعل التربوي داخلها مما يؤدي إلى الانحراف و التوتر ، ويصعب على الأسرة القيام بعملية التنشئة الاجتماعية اللازمة التي ينشأ عن طريقها لدى الفرد ضوابط داخلية توجه سلوكه وتحدده وتقيده.

2_عوائق الممارسة التربوية داخل المدرسة وانحراف الشباب :

تحتل المدرسة في ميدان الممارسة التربوية الدور الثاني من الأهمية بعد الأسرة مباشرة و يلعب المعلم فيها دورا كبيرا في تربية الطفل و بناء شخصيته طيلة وجوده في المدرسة و خاصة إذا كان المعلم قد تلقى تدريبا كافيا (المعلم الفعال) في مجال التربية و علم السلوك بما يؤهله لأن يخلق في التلميذ شخصية متكاملة وسوية ،و يلعب تدريب المعلم دورا كبيرا في هذا المجال .

و مع كل ذلك فإننا يجب أن لا نتوقع في المدرسة قوة خارقة للطبيعة في مجال ضبط كل التلاميذ و إبعادهم عن الانحراف ، إذ لا يمكن للمدرسة وحدها تحمل عبئها بمفردها ، من الخطأ أن نلقي كل اللوم على المدرسة في حالة ثبوت الفعل الانحرافي الذي قد يصدر عن تلميذ ما و من المؤسف أن هذه الفكرة تسيطر على الكثير من أفراد المجتمع بوجه عام ، بل و بين بعض رجال التربية أنفسهم، و هذه النظرة لا تتسم بالواقعية لأنه هناك عوامل كثيرة تتظافر مع فشل المدرسة في الإيقاع للشاب في هوة الانحراف، ولاسيما قصور الأسرة عن أداء رسالتها.

ولا نستطيع أن ننكر أن هناك العديد من المشكلات التي تواجه المدرسة وأداءها التربوي السليم،و التي لها علاقة بانحراف الشباب و منها :

أ_المعلم و قصور أدواره :

ثمة حدودا لا يمكن أن نتوقعها من المدرسة في مجال التربية و تكوين الشخصية السوية ، ويجب ألا نتوقع أن تحل المدرسة بصورة كاملة محل الأسرة في أداء رسالتها، و لا يمكن أن نفترض أن المعلم يمكنه أن يقوم بدور الوالد لكثير من التلاميذ الذين يتولى رعايتهم ، لأن العلاقة بين المعلم و التلميذ تفتقر دائما _ أو على الأقل على المدى القصير _ إلى المشاعر العاطفية و الصلات الأبوية الحقيقية، فليس من مهمة المدرس أن يصبح أبا لجميع التلاميذ، كذالك الأمر بالنسبة للمعلمة أن تصبح أما بالنسبة لهم،بل كل ما في الأمر هو أداء الدور الحقيقي للمعلم في الكشف عن أولئك الذين تعترضهم المشاكل داخل الأسرة، والذين تبدو في سلوكهم السمات الانحرافية بهدف التعاون مع الأخصائيين على حل مشاكلهم السلوكية .

وهذا ليس بالأمر السهل، إذ يتطلب قدر كبير من التدريب أكبر مما يتمتع به المعلم العادي ولذا يجب أن يراعى في اختيار المعلم أن تكون لديه بعض الخبرة في فهم مشاعر التلاميذ ، وأن يكون لديه بعض الشعور العاطفي الذي يسمح له بالتجاوب مع مشاكلهم، ثم انه يجب أن يكون قادرا على مواجهة المشاكل السلوكية التي تبدو من طلابه

إن دور المعلم في المدرسة لا يقتصر على مجرد تلقين المعارف و المعلومات للتلميذ، بل إن دوره يتعدى ذلك،"فقد أصبح لزاما على المعلم أن يدرس ثقافة المجتمع الذي تربى هو أصلا فيه، ويربي الآن من أجله،حتى يلم بمفهوم الثقافة السائدة، خاصة وان موقف التعليم يتحدد وأهدافه على أساس النظرة الشاملة إلى ثقافة المجتمع "[1] .

كما يجب أيضا أن نراعي زيادة عدد المعلمين ورفع أجورهم،وحسن اختيارهم "وحتى إذا كان التعليم كله يهدف في النهاية إلى الاستهلاك فقط فمن الواضح أن الحاجة إلى المدرسين واضحة ، أي الأفراد ذو التخصص . ."[2] ، مع الاشتراط قدر معين من التدريب .

و يبدو أن نظام المعلم الزائر VISITING TEACHERمن أكثر النظم جدوى في فهم مشكلة التلميذ فهما كاملا بالاستماع إليه ومراقبته و التردد عليه لزيارته والتحدث مع أفراد أسرته،و هذا من شأنه أن يحد من الانحراف و يساعد على سرعة تشخيص المشاكل .

و يمكن التوسع في نظام المعلم الزائر بحيث يلعب دورا أكثر ايجابية، ويكون ذلك بتنظيم التعاون بينه وبين سائر الأجهزة التعليمية والتربوية والإصلاحية سواء داخل المدرسة أو خارجها، بحيث يتناول نشاطه كافة العناصر ذات الصلة بتكوين الشخصية السوية ،وعلاج الشخصية المنحرفة.

ب- غياب الأخصائيين النفسيين و المعلمين التربويين داخل المدرسة:

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نتوقع من معلم المدرسة العادي —حتى ولو كان تربويا- أن يكون طبيبا عقليا أو خبيرا في مساءل الطفولة ،أو باحثا اجتماعيا ،ولا يمكن أن نفترض أن يتلقى جميع المعلمين تدريبا في هذا الصدد ،بل إنهم يكونون صالحين لأداء وظائفهم إذا كانت مؤهلاتهم تنطوي على إلمام كاف بسيكولوجية الطفل واختلاف النزعة الفردية في الأطفال ،ومظاهر نمو الشخصية ،وسائل هذا النمو والحالات النفسية غير العادية .

وعلى ضوء هذه الحقائق ،يجب أن نضع أخصائيين نفسانيين وتربويين داخل نطاق المدرسة للكشف عن بوادر الانحراف ،"ويجب أن نتعرف على طبيعة التكوين النفسي والفيسيولوجي والاجتماعي والثقافي للشاب ،فهذه المكتسبات تصنع شخصية الشاب ،ولابد من استيعاب أبعادها لكي نتمكن من تقويمها وإعدادها إعدادا مؤهلا للنهوض بأعباء رعاية الشباب وخدمتهم" [1].

ولكي تؤدي المدرسة وظيفتها في ممارسة الفعل التربوي بطريقة مثالية ،فانه يتعين أن يلحق بها-أو على الأقل يخصص لها بصفة منتظمة-عيادة عقلية ونفسية تجرى فيها دراسات على التلاميذ كحالات النقص العقلي والخلل العاطفي أو تعقد الشخصية لملاحظتها والمساعدة في علاجها .ولقد عارض الكثير من الباحثين اليوم فكرة إنشاء نظام أساسه جمع التلاميذ ذوي الطراز الواحد من المشاكل السلوكية ،فيجمع التلاميذ الذين دأبوا على الهروب من المدرسة في مدارس خاصة مثلا"Truancy schools "أو يجمع الأطفال الذين هم في حاجة إلى المراقبة الاجتماعية في مدارس خاصة probtion schools أو يحشد الأطفال الأيتام في مدرسة واحدة ،وهكذا.

ولكن الرأي اتجه أخيرا بهؤلاء الباحثين إلى تشجيع إنشاء مثل هذه المدارس التي تقوم على جمع فئات خاصة من الأطفال تحت نظام مدرسي واحد يتناسب مع قدراتهم العقلية،وحتى يسهل تتبع معهم الوسائل التعليمية التي تتناسب مع هذه القدرات،ويعترض البعض على هذا الاتجاه بقوله أن مثل هذه السياسة تخلق أطفال يغمرهم الشعور بأنهم" أغبياء".

ومع كل ذلك فان التفكير في محاولة جمع التلاميذ المنحرفين أو الذين على شفا الانحراف هي محاولة لا بأس بها، إذا نظرنا إليها باعتبارها وسيلة ناجحة لتخليص المدرسة العادية من الشوائب السلوكية التي تؤثر على الأسوياء من تلاميذها.

ج-الضغوطات الاجتماعية والنفسية وعدم التوافق بين التلميذ والمدرسة :

لقد أثبتت العديد من الدراسات والبحوث[*] التي قام بها المهتمين بالدراسات التعليمية والتربوية أن التلميذ في مختلف مراحل التعليم، يمكن أن يتعرض داخل المدرسة لمجموعة من الضغوط الاجتماعية والنفسية التي تؤثر بالضرورة على اتجاهات الشخص وسلوكه الاجتماعي .

ففي دراسة للبرفسير هارولد ديلون harrold j .dillon [**]،انتهى إلى القول بأن الأبحاث الميدانية التي أثبتت بيقين أن كثيرا من التلاميذ الذين ينحدرون من بيئة مترلية عادية يكونون عرضة للانهيار النفسي والاجتماعي شأنهم شأن التلاميذ الذين يعيشون في بيوت تسودها المصاعب العاطفية والاجتماعية ،وهذه الحقيقة من شأنها أن تبرز الدور الذي تلعبه المدرسة في خلق حالات من السلوك غير المتوافق لا تربطها بالمترل أية علاقة سببية،صحيح أن تغيير التلميذ لمدرسته أكثر من مرة قد فشل في علاج بعض الحالات الانحرافية إلا أنه يمكن القول بوجه عام أن عدم التكيف الاجتماعي الذي يعانيه بعض التلاميذ يرجع بصفة رئيسية إلى فشل المدرسة في إشباع احتياجاتهم العامة،ومتطلبات مرحلة السن التي يجتازونها،كما ثبت في بعض الحالات أن المدرسة قد لعبت الدور الرئيسي في خلق عدم التكيف بسبب عدم اتفاق البرامج والنظم التعليمية مع روح العصر مما يسبب ضغوطا نفسية على

التلاميذ ترجع إلى كبت رغباتهم في تغيير نوع الدراسات أو عجزهم عن مجارات روح المنافسة التي تسود الفصل المدرسي أو بسبب جمود الكتاب المدرسي نفسه أو لغير ذلك من الأسباب [1].

ومن جهة أخرى أجرت جامعة برديوpurdue دراسة سنة 1949على 15000تلميذ في أنحاء مختلفة من الولايات المتحدة الأمريكية وذلك تحت إشراف الدكتور ريمرزh.h.remmers الأستاذ النفسي بالجامعة،"وتركزت الدراسة على المشاكل الحقيقية التي يعاني منها التلاميذ حتى سن التاسعة عشرة،وأسفرت الدراسة عن أكثر من ثلث الطلاب موضوع الدراسة كانوا يعانون من عدم اتفاق ميولهم الحقيقية مع نوعية الدراسات التي يتلقونها في مدارسهم ومعاهدهم،.....كما شكا عدد كبير من متاعب نفسية عديدة تبين من الفحص أنها ترجع إلى مجموعة من الاضطرابات التي يعكسها الخلل في تركيب الشخصية"[2].

إن عدم توافق التلميذ مع مدرسته من شأنه أن يؤدي إلى الاضطراب والمعانات،سواء كان ذلك راجع إلى سوء اختيار نوع الدراسة أو صعوبة الدراسة في حد ذاتها،أو ثقل الوسائل التعليمية بوجه عام،وكثيرا ما يعترف التلميذ لمعلمه بعدم حبه بل وبكراهيته للنظام المدرسي ذاته، ولكن المعلم لا يفكر في الغالب في تغيير أسلوبه التعليمي، بل يبادر إلى تبرير مثل هذه الشكوى بأسباب ترجع إلى التلميذ نفسه مثل التخلف العقلي أو عدم القدرة على الاستيعاب ...إلخ.

وهناك الكثير من البلدان التي تهمل النظم التوجيهية المناسبة للوالدين، وهناك الكثير من المسئولين عن النظم المدرسية قد يلجئون في رفع مسؤولية المدرسة إلى القول بأن ما يسمى ب: (مشكلة التلميذ) ترجع جذورها عادة إلى ما قبل التحاقه بالمدرسة، حيث يلتحق الطفل بالمدرسة ومعه مشاكله السلوكية والمظاهر الأولى لمتاعبه النفسية التي بدأت في أحضان الأسرة، ولكن قولنا بهذه الحقيقة لا يعني إلغاء دور المدرسة الهام في بناء الشخصية السوية وتجنب الوقوع في الانحراف.

* بعض الخدمات المدرسية الخاصة بالتلميذ المنحرف:

يمكن للمدرسة التي تتمتع بقدر معين من التطور أن تقدم للتلميذ المنحرف – أو الذي تبدوا عليه أعراض الانحراف – العديد من الخدمات والمساعدات، وذلك بإتباع الوسائل الآتية:

1- مكاتب التوجيه الفرديIndividual Guidance:

" يدخل الطفل المدرسة ويتعلم المهارات والمعارف الأساسية، وينموا الكلام وتنموا اللغة لديه. ويمر الطفل بعملية التنشئة الاجتماعية ويتعامل مع العالم الخارجي، ويتعلم المعايير الاجتماعيةSocial Norms ويتوحد مع الوالدين والمربين، ويتعلم دوره الجنسي والفروق بين الجنسين وتنموا الانفعالات المتنوعة... "[1]، وإرشاد هذا الطفل وتوجيهه هو من قبيل المساعدة لرعاية نموه النفسي وإبعاده عن الانحراف فيما بعد، وهذا لا يتم إلا بوجود مكاتب خاصة لذلك.

ومن هنا يمكن أن يكون في كل مدرسة مكتب للتوجيه الفردي تكون وظيفته الاهتمام بالتلميذ الذي تبدوا عليه أعراض الانحراف أو عدم التكيف والتوافق الاجتماعي ، ويختص هذا المكتب بإجراء الفحوص الاجتماعية والنفسية المختلفة، وذلك بإتباع وسائل تتناسب مع حالة التلميذ، ويقول ستالنكن Stulken أن فكرة التوجيه الفردي " تفترض أن كل تلميذ – مهما كان نوع انحرافه أو مشكلته السلوكية يجب أن يمنح فرصة النمو الذاتي الطبيعي خلال اجتيازه مراحل التعليم، وأن هذا الحق يجب ألا يصطدم بعقبات من أي نوع"[2].

2- برامج التوجيه الجماعي: Group Guidance programs:

تهدف هذه البرامج إلى تحقيق التكيف الاجتماعي في مجموعات سوية يكتسب من خلالها صداقات جديدة، ويوجه التلميذ إلى التعاون مع هؤلاء الأصدقاء الجدد دون أن يفقد روح المبادرة أو القيادة أو الاستقلال، وتوضع هذه البرامج على أساس الاعتقاد السائد بين الاجتماعيين والنفسيين والذي مؤداه: أن الجماعة لها نفوذ على الفرد يؤدي إلى سهولة تطبيعه اجتماعيا، وتدريبه على الانتماء للجماعة والخضوع لها، والمثول لقيمها ومبادئها السلوكية .

" وقد أثمرت فكرة هذه البرامج ونجحت في علاج كثير من الحالات الإنحرافية أو الحالات المنذرة، ولم يرفض الاستجابة لآثار التوجيه الجماعي إلا التلاميذ الذين يعانون من عدم التكيف الحاد الذي يؤدي بهم إلى الشعور بالمعانات وعدم الارتياح لمجرد وجودهم بين مجموعات غريبة عنهم بحيث يعجزون عن التكيف مع أفرادها، كما يجب أن يستبعد من دائرة هذا العلاج التلميذ الذي وصل إلى درجة الانحراف الإيجابي بحيث يمكن أن يمارس نفوذا "ضارا" على سواه من الأسوياء"[1].

3-البرامج التجريبية الخاصة Spécial Expérimental Programs:

تقوم هذه البرامج على الجمع بين الخدمات الإكلينيكية المعملية التي تقدم للتلاميذ (كالفحوص الطبية والنفسية والعقلية...) وبين الأبحاث الخاصة التي تجريها المدرسة على التلميذ الذي تبدو عليه أعراض السلوك المنحرف والتي تحدث بتأثير العوامل ذات القوة السببية (الفقر، انهيار الأسرة، المخالطة السيئة...)، ولهذا يجب على المدرسة أن تهتم عن طريق البرامج التجريبية بالجمع بين استمرار التلميذ المنحرف في دراسته العادية مع محاولة إقصاءه عن الأسباب والعوامل الخارجة عن المدرسة.

ولقد انتقد ستالكن المدارس القائمة على مجرد تعليم التلميذ حرفة خاصة تعينه على كسب عيشه في المستقبل، وهو يرى أن المدرسة يجب أن تقدم لهؤلاء التلاميذ أكثر من مجرد كسب العيش، وهو إعادة بنائهم حتى يتحولوا إلى مواطنين صالحين ويتم ذلك عن طريق البرامج التجريبية الخاصة التي تجمع بين التدريب على الحرفة والتوجيه التربوي والعلاج الإكلينيكي.

4- البرامج القائمة على التنسيق بين المدرسة والمؤسسات الاجتماعية Corrdinated schools and Corumenty programs:

" وترسم هذه البرامج على أساس أن المدرسة ما هي إلا عضوا" في فريق متكامل يعمل بالتعاون مع المحكمة والعيادات النفسية والوكالات والجمعيات والمؤسسات الاجتماعية الأخرى سواء منها الرسمية، أي التي ترعاها الدولة أو التي ينشئها الأفراد بجهودهم الذاتية، وسواء منها مؤسسات الرعاية الاجتماعية أو مراكز الفحص الفني مثل العيادات النفسية والعقلية"[1].

وتهتم هذه البرامج أساسا بوضع الوسائل التي تعمل على تحسين الظروف الاجتماعية والنفسية للطفل، ويتم ذلك بالتعاون مع المدرسة ومختلف الجهات، وتعمل هذه البرامج على خلق علاقات متوازنة بين الطفل والجماعة التي ينتمي إليها.

وقصارى القول أن الخدمات المدرسية التي يمكن أن تقدمها المدرسة للطفل المنحرف أو الذي يبدوا عليه الأعراض المنذرة، متنوعة تتراوح بين مجرد الاهتمام العابر الذي يبديه المدرس لتلاميذه غير المتكيف من وقت لآخر، وبين وضع نظام متكامل للتقويم عن طريق الخدمات الاجتماعية أو العلاج النفسي الإكلينيكي.

" ولقد لخصت الباحثة روث سترانج Ruth strang الأستاذة بكلية المعلمين بجامعة كولومبيا رسالة المدرسة حيال الحدث المنحرف في القول بأن المدرسة هي الصرح الشاهق الذي يمكنه الوقوف في وجه المد الإنحرافي المتزايد بين جموع الشباب، وأن المعلم هو المحور الرئيسي في عملية التعليم والتنشئة وفي تنفيذ أية برامج تعليمية أو تربوية ناجحة، وهي توصي المعلمين في أية مدرسة صغيرة كانت أم كبيرة وأيا كانت مرحلة السن أو التعليم التي يجتازها التلميذ أن يتبعوا الوسائل الآتية في أداء رسالتهم:

1- الاهتمام بتعليم الأطفال مختلف المهارات وتنمية العديد من الهويات لديهم في مجال الرياضة أو الفن أو الموسيقى أو الأشغال اليدوية فضلا عن تنمية هواية القراءة والإطلاع الخارجي، حتى يرتبط التلميذ بأوجه النشاط التي تتفق مع ميوله ورغباته.
2- فهم مهارات التلميذ ومعاونته على اكتشاف نفسه ومعرفة قدراته الذاتية في المجالات الفنية والاجتماعية فضلا عن كفايته العلمية.
3- وضع البرامج التي من شأنها أن تخلق مجالا للتلميذ لتثبيت مهاراته ومواهبه.
4- مساعدة التلميذ على اكتساب مهارات ومعارف جديدة دون أن يخشى عواقب الفشل.
5- توجيه التلميذ إلى تحديد أهداف فردية تتناسب مع قدراته ومراقبة مدى ما يحرزه من تقدم في سبيل تحقيق هذه الأهداف.

6- إرشاد التلميذ إلى كيفية تنمية علاقاته الإنسانية وإلى التصرف من خلال خطوط اجتماعية بناءة.

7- منح الفرصة للتلاميذ لإنشاء علاقات عاطفية طبيعية مع المحيطين بهم، ويراعى في هذا الصدد ألا يطلب من التلميذ أن يتصرف كرجل كبير، ولا يطلب من التلميذة أن تتصرف كسيدة كمجتمع.

8- على المعلم ألا يبدي انزعاجه لمجرد ظهور بوادر السلوك المنحرف على أحد تلاميذ الفصل، بل عليه أن يتفهم موقفه، وأن ينظر إلى الأمور نظرة موضوعية علمية.

9- على المعلم أن يبذل قصارى جهده لمساعدة التلميذ المشكل على تغيير مواقفه حيال المؤثرات المختلفة وأن يكسبه الثقة في قدرته على ذلك[1].

خلاصة القول أن غياب الممارسة التربوية السليمة داخل مختلف المؤسسات الاجتماعية (الأسرة، المدرسة...) وما يواجهها من عوائق اجتماعية ونفسية وتربوية ... إلخ من شأنه أن يعمل على خلق السلوك الإنحرافي لدى الشباب، وخاصة إذا علمنا أن الأسرة والمدرسة الجزائرية اليوم تواجه العديد من المشكلات على غرار النقص الدائم في عدد المدرسين ومهاراتهم، وعدم اهتمام الجامعة بوضع البرامج التدريبية لخريجيها ممن سيعملون في حقل التعليم، كما تشكوا المدارس عادة من الميزانيات المحدودة والتكاليف الباهظة التي تتحملها المدرسة لإقامة المباني وإعداد الأجهزة الفنية والإدارية، يضاف إلى ذلك أن كثيرا من هذه المدارس تقع مبانيها في قلب الأحياء المكتظة ومواطن الانحراف Delinquency Aereas ، حيث تسود مظاهر التفكك والانهيار الاجتماعي، وهنا يصعب على المدرسة القيام بواجبها وتحمل الأعباء بمفردها ومن هنا نوجه نداء إلى كافة الباحثين والمربين إلى ضرورة إعادة النظر في أداء الممارسة التربوية داخل المؤسسات الاجتماعية (عوائقها، مشكلاتها) وعلاقتها بالانحراف.

قائمة المراجع

1- أبو خلدون ساطع الحصري، أحاديث في التربية والإجتماع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، دون سنة.

2- مربوحة نوار، ظاهرة انحراف الأحداث في الجزائر، أسسها وطرائق علاجها، مجلة دراسات سوسيولوجية، ج1 ، العدد:02، جامعة عنابة أفريل 1991.

3- العياشي عنصر، سوسيولوجيا الأزمة الراهنة في الجزائر، نحو علم اجتماع نقدي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، الجزائر 2003.

4- مصطفى راجعي، الشباب والإدماج المهني والإقتصادي 1988- 1996، المجلة الجزائرية للدراسات السوسيولوجية، جامعة جيجل، العدد التجريبي، جوان 2005.

5- منير العصره، رعاية الأحداث ومشكلة التقويم، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر ، الإسكندرية، مصر، دون سنة.

6- الكتاني فاطمة المنتصر، الإتجاهات الوالدية في التنشئة الإجتماعية وعلاقتها بمخاوف الذات لدى الأطفال، دار الشروق للنشر والتوزيع عمان، الأردن2000.

7- جون بولبي، سيكولوجيا الإنفصال، ترجمة عبد الهادي عبد الرحمان، دار الطليعة، بيروت 1991.

8- حسن محمود الشمال، سيكولوجيا الفرد في المجتمع، دار الآفاق العربية، القاهرة2001.

9- خليل محمد بيومي، سيكولوجيا العلاقة الأسرية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 2000.

10- فايز مراد دندش، في أصول التربية، دار الوفاء لدنيا للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر 2004.

11- محمد لبيب النجيمي، دور التربية في التنمية الإجتماعية والإقتصادية للدول النامية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط2 ، بيروت 1981.

12- نجم الدين السهرودي، رعاية الشباب بين المبدأ والتطبيق، دار الجمهورية، بغداد 1968.

-13 Bernard Paul, le développement de la personnalité, Paris Maison 1997

الهوامش

(*) بستالوزي: سويسري ، من القائلين بإصلاح التربية على أساس سيكولوجي، من مؤلفاته : تنمية أخلاق الطفل وتربيته

(1)- أبو خلدون ساطع الحصري، أحاديث في التربية والاجتماع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، دون سنة، ص 166.

(*)- تولسوي: روائي روسي، عمل كمعلم ، وانشأ مدرسة ابتدائية في ضيعته: ياسانيا بولونيا" ، له العديد من الكتب والقصص.

(2)-)- أبو خلدون ساطع الحصري، مرجع سابق، ص ص 240-241.

(1)- مربوحة نوار، ظاهرة انحراف الأحداث في الجزائر،أسسها وطرائق علاجها، مجلة دراسات سوسيولوجية، ج1، العدد:2، جامعة عنابة، أفريل1991، ص165.

(2)- نفس المرجع، ص166.

(3)- العياشي عنصر، سوسيولجيا الأزمة الراهنة في الجزائر، نحو علم اجتماع نقدي، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط2، الجزائر2003، ص163.

(4) – مصطفى راجعي، الشباب والإدماج المهني والاقتصادي 1988-1996، المجلة الجزائرية للدراسات السوسيولجية، جامعة جيجل، العدد التجريبي، جوان 2005،ص 40.

(1) – منير العصره، رعاية الأحداث ومشكلة التقويم، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، دون سنة،ص ص 66-67.

(2) – الكتاني فاطمة المنتصر، الاتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية وعلاقتها بمخاوف الذات لدى الاطفال ، دار الشروق للنشر والتوزيع عمان، الأردن 2000، ص 51.

(3) – جون بولبي، سيكولوجيا الانفصال، ترجمة عبد الهادي عبد الرحمان، دار الطليعة، بيروت1991،ص264.

(1) – حسن محمود شمال: سكولوجيا الفرد في المجتمع ، دار الأفاق العربية ، القاهرة ، 2001، ص153.

(2) – Bernard Paul, le développement de la personnalité, paris maison, 1997,P42.

(3) – خليل محمد بيومي : سيكولوجية العلاقة الأسرية ، دار قباءللطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،2000، ص ص 16-17.

(1) – منير العصره: مرجع سابق ، ص69.

(2) – فايز مراد دندش: في اصول التربية ، دار الوفاء لدنيا للطباعة والنشر ، الاسكندرية، مصر،2004، ص123.

(1) – فايز مراد دندش : مرجع سابق، ص54.

(2) – محمد لبيب النجيمي : دور التربية في التنمية الاجتماعية والاقتصادية للدول النامية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ط2، بيروت، 1981، ص 92.

(1) – نجم الدسين السهرودي: رعاية الشباب بين المبدأ والتطبيق، دار الجمهورية ، بغداد ، 1968،ص60.

(*) – هذه الدراسات والبحوث قامت بها وكالة الأمن الفيديرالية التابعة لمكتب الولايات المتحدة للتعليم، في التقرير الذي أصدره مكتب عام 1956.

(**) – هارولد ديلون: شغل مناصب المدير التنفيذي للتعليم العام في ولاية فيلادلفيا لفترة طويلة .

(1) – منير العصره: مرجع سابق ،ص ص 87-88.

(2) – نفس المرجع ، ص ص 88-89.

(1) – فايز مراد دندش: مرجع السابق ، ص124.

(2) – منير العصره: مرجع سابق، ص 94.

(1) – منير العصره، نفس المرجع ، ص 95.

(1) – منير العصره : مرجع سابق ، ص 96.

(1) – منير العصره: مرجع سابق ، ص 98-99.